المهاجر السوري في رواية (عائد إلى حلب) لعبد الله مكسور

أ.د. خليل عودة*

مقدمة:

يعد موضوع المهاجرين السوريين من الموضوعات البارزة التي تناولها الكتاب والسياسيون والأدباء والفنانون، وجاء هذا الاهتمام بسبب عمق المأساة الإنسانية التي تشكلت فصولها في مساحات مكانية وزمانية واسعة، وشكلت تداعياتها هماً إنسانياً على المستوين العربي والعالمي، وقد تكون تركيا من أكثر الدول التي تحملت عبء المهاجرين العرب بسبب قربها الجغرافي من مواقع الأحداث، فقد "أكد غويتريش أن تركيا تستضيف حالياً أكثر من 4 ملايين و100 ألف لاجئ من مختلف الجنسيات، وهو الرقم الأكبر مقارنة مع الدول الأخرى، معظم هؤلاء اللاجئين من العراقيين والسوريين."[1]

وإذا كانت الصحف تناولت واقع المهاجرين السوريين في تركيا من خلال حقائق وتقارير، فإن الكتاب والفنانين قد تناولوا هذا الموضوع من زاوية إبداعية، واستطاعوا إيصال صورة المهاجرين السوريين من خلال أعمال فنية تقدم الصورة بشكل أكثر تأثيراً وهذا ما فعله عبدالله المكسور في روايته عائد إلى حلب واستطاع من خلالها تقديم صورة مفعمة بالأحاسيس والمشاعر عن واقع المهاجرين السوريين في داخل الوطن وخارجه، وكانت مخيمات اللاجئين السوريين في تركيا أحد المحطات الرئيسة في الرواية، واستطاع من خلالها أن يعكس تداعيات المكان،

---

*– أ.د. **خليل عودة**: دكتوراة لغة عربية من جامعة القاهرة، يعمل في جامعة النجاح الوطنية بفلسطين، يحمل رتبة أستاذ، عمل عميداً لكليتيْ الآداب والدراسات العليا في الجامعة، وله العديد من الأبحاث العلمية المحكّمة المنشورة في داخل فلسطين وخارجها، ويُشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه.

[1] - جولة بين خيام اللاجئين في تركيا: عبد الرحمن ضاحي، البيان، لندن، ع341، 2015، ص61.

وواقع المخيمات، وأثر الحياة الجديدة على الواقع النفسي والاجتماعي والاقتصادي، ويستعرض البحث هذه المتغيرات، ومدى قدرة الكاتب على إيصال صورة مؤثرة لواقع المهاجرين السوريين ومعاناتهم الحقيقية بعيداً عن الوطن.

عتبة العنوان:

تشكل رواية عائد إلى حلب واحدة من الروايات التي تناولت المأساة السورية بكل أبعادها وتفاصيلها، وتتمحور الواجهة الإعلامية للرواية في دلالات العنوان الذي اختاره الكاتب وشكل من خلاله محور الفكرة الرئيسة، إذ جمع العنوان بين دلالتين مباشرتين الاولى (العودة) والثانية (حلب) وفي الدلالة الأولى تجمع كلمة العودة بين بعدين أساسيين المنفى والعودة، لأن الذي يطلب العودة بالتأكيد هو بعيد عن وطنه، وطلب العودة لا يكون إلا إذا كان المنفى جبرياً، لأن الذي يملك إرادة العودة لا يطلبها، وكلمة (عائد) تتضمن حتمية العودة، والتأكيد عليها، والكاتب يربط العودة بمدينة حلب، ربما لأن حلب احتلت حيزاً واسعاً من الأخبار التي أظهرت قسوة الحرب، وكثرة الضحايا المدنيين الذين سقطوا على أرض حلب، وأيضاً لان حلب شكلت في إرثها التاريخي والجغرافي نقطة مركزية في الحرب الدائرة في سوريا، ولهذا يخصص الكاتب العودة إلى حلب دون غيرها من المدن السورية، وكأن العودة إلى حلب تعني بداية النهاية للمأساة السورية.

وقد يكون تخصيص حلب بالعودة راجع إلى دائرة أضيق تخص الكاتب كونها مدينة الكاتب الذي ينتمي إليها في فكره وأصوله، تماماً كما فعل غسان كنفاني في روايته عائد إلى حيفا، وهنا قد يكون التناص الأسلوبي واضحاً بين عنواني الروايتين اللتين جاءتا من كاتبين مهاجرين قسراً عن بلادهما، وكلاهما يسعى إلى العودة ويرى حتميتها من خلال استخدام اسم الفاعل الذي

يعكس أمراً قائماً وآتياً، ثم تكون العودة مخصصة بالجزء الذي يدل دلالة واضحة على الكل، في رواية المكسور الكل السوري، وفي رواية غسان كنفاني الكل الفلسطيني. فرواية غسان كنفاني تعالج من خلال عنوانها قضية اللجوء والعودة، وهي تعد "واحدة من أكثر الروايات إثارة لمسألة النزوح ومآسيها ومسألة العودة ومغرياتها، والمخاطر والتضحيات التي تتطلبها."[2]

وبهذا العنوان البسيط استطاع المكسور اختراق الوضع السياسي والعسكري واختصار المسافة بين اللجوء والعودة، واستطاع أيضاً أن يضئ طريق القارئ إلى الموضوع الذي تناولته الرواية بما فيه من مأساة الحرب، وقسوة التهجير، ورغبة العودة إلى الوطن الذي يشكل هماً قائماً في نفس المهاجر، ومن هنا تشكلت عتبة العنوان "بوصفه المدخل أو العتبة التي يجري التفاوض عليها لكشف مخبوءات النص الذي يتقدمه ذلك العنوان" [3]

تداعيات المكان:

تظهر في رواية المكسور المفارقة الواضحة في تداعيات المكان بين المكان الموجود، والمكان المفقود، وقد جاء الإشعار الأول في عنوان الرواية (عائد) مما يعني رغبة الكاتب في الانتقال من المكان الموجود إلى المكان المفقود، والرواية تتنقل بين الامكنة في أحداثها، وترسم صورة واضحة لغربة المكان وغربة الإنسان، فالمكان في الرواية ليس مجرد معالم جغرافية أو عمرانية أو أثرية، وإنما واقع إنساني يعكس تفاصيل الأحداث التي تصاحب المكان وتخلق عالماً آخر ممزوجاً بأحداث وذكريات ودلالات ملتصقة في وجدان وعقل صاحبه "إن دراسة تشكيل المكان تقوم على

[1]- غسان كنفاني، ثنائية الخروج والعودة، رواية عائد إلي حيفا انموذجاً: سمير حماد، الموقف الأدبي سوريا، م41، ع 495، 2012، ص181.

[2]- العنوان في الشعر العراقي المعاصر أنماطه ووظائفه: ضياء الثامري، مجلة جامعة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، م9، ع2، 2010، ص13.

استخراج مقاطع الوصف الموجودة للأشياء الطبيعية منها والمادية، ومما تضيفه على عنصر الرواية من دلالات وظلال نفسية وفكرية لها علاقة مباشرة بحالة الشخصية ورؤيتها للمكان الذي تقيم فيه سواء أكانت إقامة اختيارية أم جبرية" [4]

والوطن دائماً إن كان حاضراً أم غائباً، لا يغيب عن ذهن الإنسان، لان الإنسان ليس فقط يعشق المكان، وإنما هو يندمج فيه بكل أحاسيسه ومشاعره، وإذا كانت الحرب تمزق الوطن، وتفصل الإنسان عنه فأنه يبقى فيه كياناً قائماً ولو على مستوى الكلمات "إنها الحرب يغدو الوطن جملاً تصطف ليحكي قصة الوجع المكابر"[5]

والإنسان لا يغيب عن المكان، لأنه جزء أصيل من تكوينه النفسي، ورمز لهويته وبقائه "إن إدراك الإنسان للمكان مباشر وحسي، وصراعه معه ما هو إلا تأكيد لذاته وتأصيل لهويته، فبقدر إحساس الشخص بالمكان، تكمن أهمية وجوده، ولا تكتسب الذات أهميتها إلا من خلال تفاعلها مع المكان الموجود فيه."[6]

وإيماناً من الكاتب في توظيف المكان من خلال مساحات مكانية متنوعة تغطي مجمل الأحداث الحاصلة في المكانين الموجود والمفقود، فقد حاول التركيز على المكان بكل تفاصيله وإيحاءته، وحاول أيضاً نقل المشاهد المكانية في حركة مصاحبة للأحداث لأن "الانتقال من مكان إلى مكان يصاحبه تغير في الشخصية ، أما الانغلاق في مكان واحد دون التمكن من

[1]- أهمية خصوصية المكان في الرواية "الرواية الفلسطينية نموذجاً" : صبحية عودة محمد، مجلة المسار، تونس، ع 54، 2001، ص28.
[5]- عائد إلى حلب: عبدالله ياسر مكسور، ط دار مضاءات للنشر والتوزيع – عمان الأردن 2013، ص7.
[3]- أهمية خصوصية المكان في الرواية: الرواية الفلسطينة نموذجاً: صبحية عودة محمد، ص 28.

الحركة، فإن هذه الحالة تعبر عن العجز وعدم القدرة على الفعل أو التفاعل مع العالم الخارجي"[7]

فالوطن بلا شك قطعة من إنسانية الإنسان، وحب الوطن لا يحتاج إلى ثقافة خاصة "إنه إحساس رهيب أن نحب الأوطان أن نحمل في قلوبنا تلك العاطفة لتراب وشجر وبيوت وأنهار وبقايا صور" [8] فالوطن هو الأمان، وهو الكرامة للإنسان، وترك الوطن يعني الذل والهوان "فالعربي أينما ذهب متهم ومدان دون الحاجة لدليل، حتى دون الحاجة لتقديم اعتذار له"[9]

ويبقى البعيد عن وطنه غريبا، وإن جمعته الجغرافيا بأرض قريبة من وطنه، لقد شكلت مدن الشتات ومخيمات اللجوء مساحات مكانية ضيقة يعيش فيها اللاجئ السوري الذي يشعر بالغربة القاسية الممزوجة أحياناً بالذل والمهانة "في الريحانية* تتشابه الجغرافية بين تركيا وسوريا، وبعض العائلات انقسمت إلى قسمين، فمنهم التركي ومنهم السوري، تتشابه وجوههم وطباعهم وعاداتهم وأساليبهم في الغش والحب، أمر واحد فقط يفترقون فيه هو أن السوري بات ضيفاً منذ عامين تقريباً على أرض متصلة بأرضه وجذور تتقاطع مع جذوره"[10]

والمهاجر السوري عندما يقطع الحدود متنقلاً بين الوطن والمنفى يشعر بغربة المكان، وعدم القدرة على التأقلم مع الحالة الجديدة التي تفرض عليه، وقد تكون صورة العابرين على الحدود من الصور المثيرة التي تجعل الإنسان غير قادر على التمييز بين الوطن في حدوده بين الداخل والخارج، أو بين الموجود والمفقود "في مواجهة الوطن لا تسطيع أن تميز مشاعرك،

---

[7]- بناء الرواية: أحمد سيزا قاسم، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب 1984، ص77.

[8] - عائد إلى حلب: عبدالله مكسور، ص13،14.

[2]- المرجع نفسه، ص15.

* الريحانية هي احدى مدن اسكندرون المتنازع عليها بين سوريا وتركيا.

[10] - المرجع نفسه، ص15، 16.

فمن على هذه البوابات مر غيرك منذ عشرات السنين بطريقتين متعاكستين، وكلاهما لم يستطع – ربما – أن يميز بين الأرض خلف الحدود من جهتين، فظل السؤال قائماً أي أرض هي الغربة"[11]

ويحاول المكسور من خلال سرد أحداث الغربة والسفر، أن يستجمع ذاكرته الأدبية، فيقفز بعيداً إلى شعر الحلاج الذي يغازل فيه المحبوبة التي تندمج مع الوطن في صورة عناق أبدي، ويبدو الارتباط بينها واضحاً من خلال عبارات الحب التي تغري المكسور بعناق الحبيبة داخل أسوار الوطن.[12] وهو بذلك يدرك تماماً مدى الصلة الوثيقة بين الإنسان والمكان، فالإنسان جزء من المكان الذي يعيش فيه.

ودائماً نجد في رواية المكسور عبارة "في مواجهة الوطن"، فالوطن مكان ينفصل عن الكاتب أحياناً عندما يكون في الغربة، ويندمج فيه عندما يكون في داخله، والمواجهة هنا تعني الحد الفاصل بين داخل الوطن وخارجه، والكاتب يصور حالتين متناقضتين في مواجهة الوطن، حالة الاندماج والأمان عندما يكون الانسان داخل الوطن، وحالة الخوف والموت والعذاب في خارجه، وما قيمة الانسان خارج الوطن هو مجرد حقيبة صغيرة، لأنه في مواجهة الوطن لا يملك شيءاً إلا بعض أوراقه الثبوتية، واشيائه الخاصة "في مواجهة الوطن أقف وحقيبتي الصغيرة"[13]، هذه الحقيبة الصغيرة هي كل ما يملك المهاجر السوري الذي يقف دائماً على أعتاب الوطن ينتظر العودة "فماذا بيد واقف على بوابة الوطن، لا شيء معه في مواجهة الدمار سوى حقيبة صغيرة"[14]

11 - عائد إلى حلب: عبدالله مكسور، ص17.
12 - المرجع نفسه، ص21.
13 - المرجع نفسه، ص23.
14 - المرجع نفسه، ص26.

وفي خضم الأحداث المتلاحقة يفقد المكان عنصر الأمن والأمان ويصبح مكاناً غير مأهول، يحاول الإنسان أن يفر منه إلى المجهول، وتفقد الأمكنة قيمتها، ويصبح المكان مثل اللامكان تماماً "أحاول أن أتخلص من هذه المشاهد، ولكن كيف السبيل وكل من حولي يهرب منها إلى اللامكان"[15] فالمكان أصبح مجهولاً، والمهاجر السوري لا يعرف السبيل إلى المكان وهو في محاولة انفصال عنه ، ويتحول إلى المكان الذي لا يريده، ولا يرى فيه خصوصية المكان الذي ينتمي إليه، أو الذي تأصل في ذاكرته.

تداعيات الهجرة:

حاول المكسور في روايته فلسفة تداعيات الهجرة وأسبابها ومسبباتها من خلال استنطاق الشخصيات التي وضعها في مواجهة الأحداث الصعبة التي مرت بها سوريا، فالهجرة لم تكن في يوم من الأيام هجرة طوعية، وإنما فرضت على الصغار والكبار الذين لم يجدوا سبيلاً آخر سوى ترك وطنهم والبحث عن مكان آمن، أو يعتقد أنه آمن مقارنة مع مشاهد الموت والدمار التي تملأ المكان الذي خرجوا منه، واستطاع الكاتب من خلال رسم المشاهد الحية المتحركة أن يقدم نموذجاً لاشكال الهجرة القسرية التي فرضت على السوريين "كان الأطفال يتحسسون ثياب أمهاتهم، يمشون خلف ظل أبيهم، الرائحة وحدها تطاردهم، رائحة الموت والدمار"[16] ويحاول الكاتب أن يسوغ هجرة السوريين عن أوطانهم، ويعود بها إلى أسباب الحرب التي فرضت عليهم، وإذا كان الكبار لا يستطيعون تبرير سبب هجرتهم، أو أنهم يخافون الحديث عنها، فإن الجيل الناشيء لا يخشى ذلك، ويعطي التفسير الصحيح لهذه الحرب التي فرضها الجيل القديم عليهم "يقطع مشاهدتي نزار

[15] - عائد إلى حلب: عبدالله مكسور ،ص24.
[16] - المرجع نفسه، ص42.

ليصرخ بهم: لا تبكون أرضاً تركتوها وهربتم، لا يجيب أحد، خلا طفل واحد لم يتجاوز عمره عشر سنوات، وبعنف اكتسبه خلال الأشهر الأخيرة – لو كنت زلمة روح خليك تحت القصف... لو إنك زلمة ليش متخبي هون؟!"[17]

إذن هو الهروب من أجل الحياة، أو هو الهروب بعيداً عن الموت، وهذا المشهد يذكرنا تماماً بمشاهد الهجرة الفلسطينية عام 1948، والتي تمت بسبب عمليات القصف والقتل التي مارستها عصابات الهاجانا الإسرائيلية على الشعب الفلسطيني، وكذلك القصف بالطائرات، وربما كانت التهمة نفسها للفلسطينيين الذين تركو أرضهم، أو اللوم نفسه، ولكن الجواب يكون من الجيل الجديد الذي لا يوجه لوماً للآباء والأجداد، لقد واجهوا الموت، وخرجوا بحثاً عن سبل جديدة للحياة.

والنتيجة لذلك كله خيام هنا وهناك على الحدود التركية السورية والحدود السورية الأردنية، تماماً كما حدث في خيام الفلسطينيين بعد الهجرة، خيام على حدود لبنان وسوريا ومصر والأردن، والمأساة تتكرر هنا من جديد، ولكن ليس في فلسطين وإنما في سوريا "مشاهد ممتعة كفيلم سينيمائي قصير لتلك الخيام التي انتشرت في الزعتري على حدود الأردن، وأخرى في كلس على الحدود التركية، حالة من العدم مصير هؤلاء"[18] إذن هي المشاهد الدرامية للحالة السورية المتمثلة في مخيمات اللاجئين على الحدود الأردنية والتركية.

17 - عائد إلى حلب: عبدالله مكسور ، ص42.
18 - المرجع نفسه ، ص43.

صورة المخيم:

المخيم هو نفسه المخيم، فلا يختلف واحد من المخيمات عن الآخر إلا في التسمية فقط، والمهاجر أياً كانت جنسيته ليس أمامه إلا المخيم والخيام، وعليه أن يرضى به وطناً جديداً بديلاً عن وطنه الأصلي الذي فقده، أو فقد منه.

وفي المخيم بغض النظر عن الاسم الذي تحمله، لا توجد كرامة للإنسان، يفقد الإنسان فيه إنسانيته، فمخيم الكرامة أو ما اصطلح عليه بهذا الاسم، لا يحمل من معاني الكرامة إلا الاسم الذي سمي به "إذاً هو المخيم عشرات الخيام على الأرض منصوبة هناك على بعد ما يقارب خمسة كيلومترات، طرقات ليست كالطرقات، معابر للمياه ليست محفورة بعد، أخشاب ستكون أوتاداً بعد قليل، أغطية مرصوصة بالعشرات، ولا شيء أبدا سوى أن تبدأ كل عائلة بالسطو على خيمة في هذا الوطن الجميل"[19] والكاتب يستخدم هنا كلمة وطن للمخيم، وكأن المخيم أصبح الوطن الجديد، أو البديل عن الوطن الأصلي، وهذا يعني أن المهاجر السوري، ليس أمامه سوى هذا الخيار الذي فرض عليه، ولا يملك أمامه سوى الاستسلام له، والقبول به.

فالمخيم كما وصفه الكاتب هو الهروب من كل المكان إلى اللامكان، وربما كانت عبارته أصدق تعبير لوصف المخيم، لأن المكان الذي يوفر لساكنيه مقومات الحياة، وفي المخيم لا مقومات للحياة، والناس يعيشون حياة قاسية ينتظرون فيها الموت، وهنا ينتقل الكاتب من الأسلوب القصصي القائم على تقديم الحدث، إلى الوصف المباشر لحالة المخيم، مما يعكس انفعاله الشخصي إزاء المشاهد التي يصورها، ويخرج في وصفها عن كونه أديباً، أو حتى صحفياً، ليعبر عن مشاعر خاصة، وانفعالات ذاتية،

[19] -عائد إلى حلب: عبدالله مكسور ، ص45، 46.

"في المخيم لا مقومات للحياة اطلاقاً، فقط هناك انتظار للموت القادم وكثير من القصص التي ينتظر صاحبها فرصة من الوقت كي يرويها لمن يلقي السمع، إنها قصص الثورة التي لم تكتمل بعد، قصص الموت والسرقة وقطع الطرقات، قصص تسكن في العيون ولا ترحل إلا بأمر حاملها ولو شاء لبقيت مدفونة إلى الأبد، ولكن كلهم ينتظرون فرصة للبوح"[20]

ففي المخيم كثير من الآلام المكبوتة التي تنتظر البوح، وكثير من العسر الذي ينتظر الفرج، وإذا كان الناس العاديون لا يستطيعون البوح، فإن الروائي يستطيع أن يقتنص اللحظات المناسبة ويعبر عن حالات غير مرئية، لا يستطيع الناس العاديون رؤيتها أو البوح بها، ومن هنا جاءت روايته المباشرة عن حالات الاغتصاب والتعذيب، وفي أروقة الخيام المتناثرة على عدة كيلومترات تختلط المشاعر والأفكار لدى الكاتب، وتكون عملية تجميع لقصص متناثرة هنا وهناك.

والحياة في المخيم لها طعم خاص تختلف تماما عن الحياة خارجه، لأن المخيم فيه معاناة غير موجودة في الحياة العادية، والمهاجر يتقبل هذه الحياة، إذ لا بديل عنها "أتململ على الأرض فأمد يدي وانتزع حجرة من تحت بطانية نامت مثلي على التراب مباشرة، أبتسم وأتذكر كل تلك الأسرة المريحة التي نمت عليها في بلدان الخليج والقاهرة واشبيلية وباريس وبغداد، كلها لا تعادل في جماليتها هذه البطانية الممدودة على تراب المخيم الذي ينعم فيه الإنسان بأعلى درجات الحرية... ولكن هل الحرية تغني عن الخبز"[21]

إذاً هي الحياة التي لا بد أن تستمر مهما كانت الظروف والأحوال، ففي المخيم أناس يعيشون ويحلمون ويفكرون، ولكن المخيم يظل هو المخيم،

[20] - عائد الى حلب: عبدالله مكسور ، ص47.
[21] - المرجع نفسه، ص56.

رمز المعاناة والمأساة الإنسانية التي تتكرر فصولها في كل أرجاء الوطن العربي الذي فرض على ساكنيه أن يكونوا ضحايا الحروب الداخلية والخارجية، فاللاجئون السوريون يتذكرون هجرات الدول المجاورة لهم "ولغة اللجوء هي وحدها التي تسيطر على كل شي، لعنتهم يرسلونها إلى كل شيء، يتذكرون كيف استضافوا العراقيين بعد نيسان من عام 2003، وكيف استضافوا اللبنانيين بعد تموز من عام 2006، يتذكرون وفي قلوبهم غصة من بلاد العرب التي ترفض أن تعطي أبناءهم فيزا لزيارتها والعمل بها"[22]

إنه الحصار الشامل من العرب الذين يريدون تكريس وجود المخيم وعزله عن محيطه العربي والإنساني، ليبقى اللاجئ تحت رحمة المساعدات الخارجية التي تأتيه من هنا أو هناك، ويظل اللاجئ عالة حتى على نفسه. لقد كان الخروج من حلب خروجاً قسرياً، بسبب مجريات الحرب التي فرضت نفسها على المدينة وأهلها، وكأن الرحيل هو الحل الأمثل والأفضل "كان اقتراحاً صائباً أن نرحل من هناك بعد أن توجه الجميع إلى الحدود التركية ليلتحقوا بمئات غيرهم"[23]

وتكون العودة إلى حلب الأمل الذي يداعب خيال الكاتب، ويريد ترسيخه على أرض الواقع، إنها عودة محفوفة بالمخاطر والصعوبات، ولكن العود الأحمد الذي يسعى إليه المهاجر السوري، إنها حلب الذاكرة والتاريخ، وحلب الوطن والأهل، والكاتب عندما يدخل حلب يذكرنا تماماً بدخول غسان كنفاني حيفا، فكلاهما يبحث عن قطعة من وطنه أصبح غريباً عنها، وأصبحت غريبة عنه، هناك اليهود الذين يحتلون الأرض والتاريخ والهوية،

[22] - عائد الى حلب: عبدالله مكسور ، ص57.
[23] - المرجع نفسه، ص58.

وهنا جبهة النصرة وآلاف المقاتلين من جنسيات مختلفة يحتلون التاريخ أيضاً، والهوية.

وقد تكون مواجهة الموت في الوطن أهون على الإنسان من مواجهة الموت والذل خارج الوطن، ولهذا يحلم المهاجر دائماً بالعودة إلى وطنه "عندما أمطرت السماء وفاض المخيم بالماء غادرت أغلب الأسر إلى تركيا مباشرة، وبعضها عاد إلى قريته، فالموت في الوطن كان أخف ألماً من الموت في الغربة ضمن مرارة الذل واللجوء"[24]

فالمهاجر السوري أمام خيارين إما أن يستمر في الهروب إلى الأمام بعيداً عن وطنه، وإما أن يعود إلى الخلف حيث بقايا الوطن وكلا الخيارين أمامه صعب، ولكنه لا يملك خيارا ثالثاً.

المنفى بين الوطن واللاوطن:

نظراً لقسوة الحرب الدائرة في مناطق مختلفة من سوريا، فقد انقسم المواطنون السوريون باتجاه خيارين صعبين لا ثالث لهما، فإما البقاء حيث هم مع احتمالية الموت في كل لحظة، وهنا يكون الخيار الأول الذي يعكس تمسك المواطن السوري بأرضه وبيته واشيائه الخاصة والعامة، وإما أن ينصرف إلى الخيار الثاني، وهو ترك الوطن والانتقال إلى مخيمات اللجوء، وهو خيار فيه شيء من الأمان، ولكنه محفوف بقسوة الحياة وذل العيش.

واستطاع المكسور أن يعكس هذين الخيارين في رسم الشخصيات التي تعاملت مع موضوع البقاء في الوطن أو الرحيل عنه، وجاء ذلك في حوار سلس وهادئ مع شخصية اختارها ليرسم صورة لمشهدين متعارضين يمثلان واقع الحياة السورية في ظل الحرب الدائرة.

[24] - عائد الى حلب: عبدالله مكسور ، ص66.

وقد جاء المشهد الإيجابي أولاً مع شخصية أبي نزار الذي حاوره الكاتب

- أما في البناية غيرك يا عم؟؟
- لا... الكل رحلوا من هنا منذ زمن

يلاحظ اندهاشي، وبدون أن أسأله قال:

أنا لا أخرج من بيتي إلا إلى القبر، اللي جاي من العمر مو أكثر من اللي راح.[25]

هذا موقف فريق من السكان في حلب الذين يرفضون الخروج، ولا بأي ثمن، ويفضلون الموت على الرحيل، ثم يواصل أبو نزار حديثه مستعرضاً واقع السوريين في ظل الأحداث الجارية "كل السكان طلعوا من بداية الأحداث بحلب.. ما ضل حدا .. شي راح على حماه، وشي على طرطوس، وشي على الشام، وشي على الخليج قبل ما يوقفوا الفيزا لهنيك، واللي ما معو مصرات (نقود باللهجة الحلبية) طلع على تركيا"[26]

إذن هي الهجرة القسرية التي فُرضت على السوريين، وجعلتهم يغادرون الوطن إلى منافي الوطن، أو إلى المنافي خارج الوطن، وقصة المنفى قصة تثير المشاعر فيتولد عنها الشعر، ويتولد عنها الإبداع، لأن المنفى يثير غصة في النفس لا تتوقف "في المنفى لا تتوقف الغصة إطلاقاً، وفي الوطن أيضاً ثمة تقاطع مخيف بينهما، يناديك المنفى وأنت في الوطن لتكتب الأشعار فيه، ويناديك الوطن لتعود من منفاك فتبكي أطلالاً عرفتها ولم تعرفها بمنفى لم يحترم يوماً وطنك المنفي أيضاً من تاريخه"[27]

والمنفى لا يقتصر فقط على مخيمات اللجوء خارج الوطن، بل ربما يكون المنفى داخل الوطن، عندما لا يعرف الإنسان في وطنه أين وكيف يشعر

[25] - عائد الى حلب: عبدالله مكسور ، ص112.
[26] - المرجع نفسه: ص112.
[27] - المرجع نفسه: ص115.

بالأمـــان، ولهـــذا يلـــح علـــى الكاتـــب ســـؤال لا ينتهـــي "هـــل يغـــدو المنفـــى وطناً؟؟"[28]

والسـؤال يتـردد كثيـراً عـن اللاجئـين السـوريين، هـل يصـبح المنفـى وطنـاً، هـل تـرك الفلسـطينيون وطـنهم، ليعيشـوا فـي وطـن بـديل، وهـل أصـبح المنفـى وطنـاً للفلسطينيين؟

إنهـا حالـة اللجـوء التـي تتقـاطع فيهـا حـالات اللجـوء، ولا يكـاد يختلـف المشـهد كثيـراً بـين اللاجـئ السـوري أو الفلسـطيني أو العربـي بشـكل عـام، وربمـا كـان المشـهد الفلسـطيني أقـرب المشـاهد الحزينـة إلـى ذاكـرة المكسـور، وهـو يتـابع مـن خـلال مهنتـه أخبـار حـرب غـزة عـام 2008 مـع المخـرج سـليم الفلسـطيني البعيـد عـن وطنـه، والمشـاهد تتشـابه فـي الحـالتين ولكـن المشـهد المـؤلم الـذي يبـرز مـن بـين حـالات المـوت المتكـررة عبـر شاشـات التلفـاز، هـو الحالـة الإنسـانية للمخـرج سـليم الفلسـطيني الـذي يتـابع أخبـار الحـرب علـى غـزة "فـي تلـك الليلـة كـان سـليم ينقـل للعـالم أجمـع عبـر شاشـة إحـدى الفضـائيات مـوت شـعبه كـي تتفـتح العيـون كـل العيـون علـى المأسـاة التـي جـاوزت كـل الحـدود، وكنـت أجلـس إلـى جـواره كمنـتج أول للنشـرة الرئيسـة، ليلتهـا، حـين وصـلتني بعـض المقـاطع الجديـدة للمـوت، فوضـعتها فـوراً كمشـاهد حـين تـتم إضـافتها بـين خبـرين، أو خـلال استضـافة معلـق عبـر العواصـم العربيـة ليحكـي عـن المـوت الـدائر هنـاك، فينـدد ويشـجب ويسـتنكر لا أكثـر، أذكـر أنـي مـررت ورقـة لسـليم عـن وجـود الصـور المرفوعـة كـي يضـعها فـي الخبـر التـالي، ولـم أكـن أدري أنـي أنقـل لـه خبر موت أمة."[29]

[28] - المرجع نفسه: ص116.
[29] - عائد الى حلب: عبدالله مكسور ، ص159.

خاتمة:

تشكل رواية عبدالله مكسور واحدة من الأعمال الأدبية التي تناولت مأساة المهاجرين السوريين بشكل خاص، والمأساة السورية بشكل عام. واستطاع الكاتب من خلال عمله الروائي تقديم صورة واضحة لحال السوريين المهجرين بشكل خاص على الحدود التركية واستطاع من خلال أسلوبه الأدبي أن يجعل الصورة أكثر حضوراً وتأثيراً بشكل خاص عندما عرض علاقة المهاجر السوري بالأرض والوطن، وكذلك تداعيات الهجرة على حياة السوريين في مخيمات اللجوء، والصورة المأساوية التي رسمها الكاتب للمخيم الذي يفتقر إلى أدنى مقومات الحياة الإنسانية.

لقد استطاع الكاتب من خلال عمله الأدبي أن يخرج من إطار العالم المتخيل، إلى العالم الواقعي بكل تداعياته وتفاصيله، واستطاع أن يمزج بشكل واضح بين عمله الصحفي الذي يتابع مجريات الأحداث، وبين كونه كاتباً يسجل الأحداث تسجيلاً فنياً وينقل مشاهداته للقارئ بشكل يتجاوز فيه المشهد الصحفي المكشوف إلى المشهد الأدبي الذي يغوص إلى عمق الأحداث ويتابع المدلولات غير المكشوفة التي تختفي خلف الدلالات التي يراها عامة الناس.

مراجع البحث:

1- أهمية خصوصية المكان في الرواية "الرواية الفلسطينية نموذجاً" : صبحية عودة محمد، مجلة المسار، تونس، ع 54، 2001.
2- بناء الرواية: أحمد سيزا قاسم، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب 1984.
3- جولة بين خيام اللاجئين في تركيا: عبد الرحمن ضاحي، البيان، لندن، ع341، 2015.
4- عائد إلى حلب: عبدالله ياسر مكسور، ط دار مضاءات للنشر والتوزيع – عمان الأردن 2013.
5- العنوان في الشعر العراقي المعاصر أنماطه ووظائفه: ضياء الثامري، مجلة جامعة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، م9، ع2، 2010.
6- غسان كنفاني، ثنائية الخروج والعودة، رواية عائد إلي حيفا انموذجاً: سمير حماد، الموقف الأدبي سوريا، م41، ع 495، 2012.